الفصل الأول

ثقافتنا العربية الإسلامية

مكوناتها وخصائصها

- **عربية أم إسلامية ؟**
- **مكوِّنات الثقافة العربية :**

الإسلام - اللغة العربية .

- **خصائص ثقافتنا :**

الربانية - الأخلاقية - الإنسانية - العالمية - التسامح - التنوع - الوسطية - التكامل .

* * *

عربية أم إسلامية ؟

فى « المؤتمر التاريخى » الذى عقد فى رحاب جامعة بيروت سنة ١٩٧٤ م تحت عنوان « الحضارة العربية بين الأصالة والتجديد » ، وكان لى شرف المشاركة فيه ، دار جدل طويل الذيول حول ماهية الحضارة المذكورة : أهى عربية أم إسلامية ؟ وما الصلة بين العروبة والإسلام ؟ أهى صلة تكامل أم صلة تناقض ؟

وهذا الجدل يتجدد ويتكرر كلما تجدد الحديث عن ثقافتنا وحضارتنا ، وعن هويتها وانتمائها ونسبها : إلى أى أب تنتسب ، وإلى أى قبيل تنتمى ؟ إلى الإسلام أم إلى العروبة ؟ إلى العرب أم إلى المسلمين ؟

وزاد من حدة هذا الجدل وجود تيارين غَلَوَا وتطرفا فى النظرة إلى القضية : تيار الإسلاميين الذين يضيقون بالعروبة ، وتيار العروبيين (القوميين) الذين يتنكرون للإسلام .

ولو أنصف كل منهما ، ونظر فى الأمر من جوانبه كلها ، لوجدوا أن لا غِنىً للعروبة عن الإسلام ، ولا معنى للإسلام بدون العروبة .

فالعربية هى لسان الإسلام ، ووعاء ثقافته ، ولغة كتابه وسُنَّته ، والعرب هم عصبة الإسلام ، وحملة رسالته الأولون ، وهم الذين بُعث فيهم الرسول ﷺ من أنفسهم ، ليتلو عليهم آيات الله ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، ثم ينطلقوا فى الأمم دعاة ومعلمين .

وأرض العرب هى أرض المقدسات الإسلامية ، فيها الكعبة البيت الحرام الذى جعله الله قياماً للناس ، ومثابة لهم وأمناً ، وقبلة لأهل الإسلام ، فحيثما كانوا ولّوا وجوههم شطره ، وإليه يحجّون ، وبه يطوفون ، ومن حوله يسعون ويقفون وينسكون .

وفى أرض العرب مسجد النبى ﷺ ، ومثوى رفاته الشريف . وفيها كذلك المسجد الأقصى الذى بارك الله حوله .

فكل المساجد التى لا تُشَد الرحال إلا إليها فى أرض العرب .

لهذا كانت العروبة وثيقة الصلة بالإسلام ، كما أن الإسلام موصول الرحم بالعروبة .

الإسلام هو الذى خلّد العربية حينما نزل بها كتابه العظيم ، وحدّث بها رسوله الكريم ، صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى أخرجها من الجزيرة ونشرها فى الآفاق .

وهو الذى علّم العرب من جهالة ، وهداهم من ضلالة ، وأخرجهم من ظلمات الشرك والجاهلية إلى نور التوحيد والإسلام . فقد كانوا كما وصفهم الله تعالى فى كتابه : ﴿ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (١) .

وأى ضلال أبين من ضلال قوم فسدت عقائدهم وتصوراتهم ، وفسدت أخلاقهم وأعمالهم ؟

والإسلام هو الذى جعل للعرب رسالة يعيشون بها ، ويموتون عليها ، ويبذلون الأنفس والنفائس فى سبيلها . وبهذا كانوا بالإسلام : ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ (٢) .

والإسلام هو الذى وحّد العرب من فُرقة ، وجمعهم من شتات القبلية ، وأكرمهم بنعمة الأخوة بعد نقمة العداوة ، وألّف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمة الله إخواناً ، وجعل منهم « أمة » واحدة ، تواجه أعتى أمم الأرض ، بما لديها من دين تغالى به ، وحق تعتزّ بنصرته ، قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللهِ

---

(١) آل عمران : ١٦٤ ، والجمعة : ٢

(٢) آل عمران : ١١٠

عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ (١) .

وما أبلغ ما قاله الإمام قتادة بن دعامة السدوسى فى بيان ما كان عليه العرب قبل الإسلام ، وما صاروا إليه بعد : « كان هذا الحى من العرب أذل الناس ذلاً ، وأشقاه عيشاً ، وأبينه ضلالة ، وأعراه جلوداً ، وأجوعه بطوناً ، مكعومين (٢) على رأس حجر بين الأسدين : فارس والروم ، لا والله ما فى بلادهم يومئذٍ من شىء يُحسَدون عليه ، مَن عاش منهم عاش شقياً ، ومَن مات ردّى إلى النار ، يؤكلون ولا يأكلون ، والله ما نعلم قبيلاً يومئذٍ من حاضر الأرض كانوا فيها أصغر حظاً ، وأرقّ فيها شأناً منهم ، حتى جاء الله عَزَّ وجَلَّ بالإسلام ، فورثكم به الكتاب ، وأحلّ لكم به دار الجهاد ، ووسع لكم به من الرزق ، وجعلكم به ملوكاً على رقاب الناس ، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم ، فاشكروا نعمه ، فإن ربكم منعم يحب الشاكرين ، وإن أهل الشكر فى مزيد الله ، فتعالى ربنا وتبارك » (٣) .

ولا غرو أن قال عمر بن الخطاب بحق لأبى عبيدة ابن الجراح فى رحلته إلى الشام ، حيث عرضت له مخاضة فى الطريق ، فنزل عمر عن بعيره ، ونزع خفيه ، ثم أخذ بخطام راحلته ، وخاض المخاضة ، فقال له أبو عبيدة : لقد فعلت - يا أمير المؤمنين - فعلاً عظيماً عند أهل الأرض ! . . فصكّه فى

---

(١) آل عمران : ١٠٣

(٢) كعم فم البعير وغيره : شدّ فاه لئلا يعض ، ومنه قيل : كعمه الخوف فهو مكعوم : أمسك فاه ومنعه من النطق .

(٣) من تفسير الطبرى : ٧/ ٨٧ - ٨٨ ، طبع المعارف .

صدره ، وقال : لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة ؟! أنتم كنتم أقل الناس ، وأذلّ الناس ، فأعزكم الله بالإسلام ، فمهما تطلبوا العزة بغيره يذلكم الله [١] .

وقال عمر الثانى - ابن عبد العزيز - وقد قال له قائل بعد موقف من مواقفه المحمودة : جزاك الله عن الإسلام خيراً يا أمير المؤمنين . فقال له : بل جزى الله الإسلام عنى خيراً !!! [٢] . فردّ الحق لأهله .

الحق أن الثقافة أو الحضارة التى نعتزّ بها ، وننتمى إليها ، ثقافة عربية إسلامية معاً . لا نقول هذا تملقاً للعروبة ، ولا مجاملة للإسلام ، إنما هى الحقيقة التى تدل عليها كل الأدلة .

هى ثقافة عربية ، بحكم اللغة الأساسية التى كتبت بها ، وعبرت عنها .

بحكم روح القرآن العربى السارية فى جنباتها ، المؤثرة فى أعماقها .

بحكم تأثير البيان النبوى العربى والأسوة المحمّدية فى مسيرتها .

بحكم أن العنصر العربى كان هو العنصر الأول فى تكوينها .

بحكم أن جزيرة العرب كانت مهبط وحيها ، ومنطلق دعوتها .

وهى مع ذلك ، وقبل ذلك ، ثقافة إسلامية بلا ريب .

بحكم الأهداف التى تتوخاها ، والحوافز التى تدفعها .

بحكم الفلسفة والتصورات التى تحركها وتفجّر طاقاتها .

بحكم الأجناس والعناصر الإسلامية المختلفة التى شاركت فيها عرباً وعجماً .

---

(١) ذكره الحاكم فى المستدرك ، وسكت عليه هو والذهبى : ٣/ ٨٢

(٢) ذكره ابن كثير فى ترجمته من كتابه « البداية والنهاية » : ٩/ ٢٠٩ ، طبع بيروت .

بحكم الرقعة الواسعة التى كانت مجالاً لها من الصين شرقاً إلى شواطىء الأطلسى غرباً .

فالأصوب - إذن - أن نقول : ثقافة عربية إسلامية ، وحضارة عربية إسلامية ، وبذلك ننصف الحقيقة ، وننصف العروبة والإسلام جميعاً .

ويزداد هذا الأمر وضوحاً عندما نبيِّن مكوِّنات هذه الثقافة وخصائصها .

* * *

● مكوِّنات الثقافة العربية :

أعتقد أن مكوِّنات الثقافة - لدى كل أمة - واحدة ، وأهمها الدين ، واللغة ، والقيم والمفاهيم السائدة والمتوارثة . وبالنسبة لنا - نحن العرب - نجد أن مكوِّنات ثقافتنا هى : الإسلام والعربية ، والقيم والمفاهيم المتوارثة والمتراكمة على مدار التاريخ .

وسأكتفى بالحديث عن الاثنين الأولين : الإسلام ، والعربية :

١ - الإسلام :

إن الدين هو المكوّن الأول لثقافة الأُمة ، أىّ أُمة . فهو الذى يخط مجراه فى تفكيرها وضميرها وأغوار وجدانها . وهو الذى يحدد لها فلسفتها الأساسية عن سر الحياة ، وغاية الوجود ، ويجيبها عن الأسئلة الخالدة التى فرضت نفسها على الإنسان فى كل زمان ومكان : مَن أنا ؟ ومِن أين جئتُ ؟ وإلى أين أذهب ؟ ولماذا أحيا ؟ ولماذا أموت ؟

الدين هو الذى يجعل للإنسان هدفاً ورسالة ، ويجعل للحياة معنىً ومذاقاً ، ويصل الوجود الإنسانى بالأزل والأبد ، حين يربطه بالله تعالى خالقه ، وبالخلود فى الدار الآخرة ، التى هى الحيوان - أى الحياة - لو كانوا يعلمون .

والإسلام - خاصة - له تأثيره العميق والشامل فى ثقافة أمتنا العربية

والإسلامية . عن طريق عقائده الإيمانية ، وشعائره التعبدية ، وقيمه الخلقية ، وأحكامه التشريعية ، وآدابه العملية ، ومفاهيمه النظرية .

فهو دين يتغلغل فى حياة الفرد والأسرة والمجتمع ، ويؤثر فى الفكر والشعور والإرادة ، ويوجه العقل والضمير والسلوك ، ويصبغ الحياة كلها بصبغة متميزة ، تتجلى فى توجهها الرباني ، ونزوعها الإنسانى ، وانضباطها الأخلاقى ، وتحركها الإيجابى ، وتوازنها القيمى .

المسلم يأكل فيسمى الله تعالى ، ويشبع فيحمد الله ، وينام على ذكر الله ، ويستيقظ على ذكر الله ، وتجيئه النعمة فيقول : الحمد لله ، وتصيبه المصيبة فيقول : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ (١) .

وكل حياته معجونة بذكر الله تعالى ،والثناء عليه . فـ « الله » تعالى حى فى وجدانه ، حاضر على لسانه .

ومن قريب حضرت مؤتمراً للمسلمين فى إيطاليا ، ولقيت مسلماً إيطالياً فعرفت عن سبب إسلامه : أنه وجد مسلماً مغربياً يعمل بائعاً متجولاً فى البرد الشديد ، فسأله : ما الذى يوقفك فى البرد الشديد ؟ قال : أطلب رزق الله . قال : وهل تكسب ما يكفيك ؟ قال : الحمد لله ، ما أكسبه يكفينى بعضه ، وأرسل الباقى إلى أبوىّ وإخوتى فى المغرب . قال : وهل أنت مسئول عنهم ؟ قال : نعم . رضا الله فى رضا الوالدين ، وصلة الرحم تطيل العمر ؟ قال الإيطالى : يعنى أنت راضٍ عن حياتك هذه ؟ قال : رضا ، ولله الحمد ، ربنا يديم نعمته علىّ . قال الإيطالى : ومن أين تعلمت هذا ؟ قال المغربى : ديننا علّمنا هذا : [ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس] (٢) . قال الإيطالى : فكيف لى أن أعرف دينكم ؟ قال المغربى :

---

(١) البقرة : ١٥٦

(٢) جزء من حديث رواه أحمد والترمذى عن أبى هريرة وحسنه فى صحيح الجامع الصغير (١٠٠) .

أدلك على المسجد لتقابل إمامه ، وهو يشرح لك ، فأنا رجل أميّ . وذهب الإيطالى مع المغربى إلى المسجد ، ولم يكن ممن يحافظ على الصلاة أو يرتاد المسجد ، وما هى إلا أيام حتى دخل الرجل فى الإسلام ، وحسن إسلامه ، وأصبح من الملتزمين الغيورين الداعين إلى الإسلام .

ولا يستطيع أحد يعيش فى المجتمع الإسلامى أن ينكر تأثير الإسلام على ثقافته ، إيّاً كان قدره من التدين ، لأن اللغة نفسها مشحونة بمعانى الدين ، والأمثال العامة المنتشرة بين الناس ممزوجة بالدين ، والأفكار والمشاعر الموجهة للسلوك متأثرة بالدين ، أعنى : بالإسلام الذى هو الدين السائد والغالب . حتى الملاحدة والشكاك الذين ظهروا فى تاريخ الأمة - على ندرتهم - لا تخطىء تأثير الإسلام على ثقافتهم ، فالإسلام - بتصوراته وقيمه وأفكاره ومشاعره وآدابه - قوة غالبة ، تؤثر على الفكر والشعور والإرادة من الداخل ومن الخارج ، شعر بذلك المرء أو لم يشعر .

وقد أكد الكثيرون ممن عايشوا المسلمين قليلاً أو كثيراً : أن الدين هو المؤثر الأول فى حياتهم وسلوكهم ، وإن كانوا من العصاة والمنحرفين عن سواء السبيل .

يقول المؤرخ الفيلسوف الاجتماعى الفرنسى « غوستاف لوبون » فى كتابه « حضارة العرب » : « تأثير دين محمد فى النفوس أعظم من تأثير أى دين آخر ، ولا تزال العروق المختلفة التى اتخذت القرآن مرشداً لها تعمل بأحكامه كما كانت تفعل منذ ثلاثة عشر قرناً . أجل قد تجد بين المسلمين عدداً قليلاً من الزنادقة والأخلياء ، ولكن لن ترى مَن يجرؤ منهم علىٰ انتهاك حرمة الإسلام فى عدم الامتثال لتعاليمه الأساسية كالصلاة فى المساجد وصوم رمضان الذى يراعى جميع المسلمين أحكامه بدقة ، مع ما فى هذه الأحكام من صرامة لا تجد مثلها فى صوم الأربعين الذى يقوم به النصارى ، كما شاهدت ذلك فى جميع الأقطار الإسلامية التى زرتها فى آسيا وإفريقية . ومن ذلك

أتيح لى أن أركب سفينة نيلية كان فيها أفراد عصابة عربية مقرّنين فى الأصفاد ، ومتهمين بأنواع الجرائم ، فقضيت العجب حين رأيتهم - وهم الذين خرقوا حرمة جميع القوانين الاجتماعية مستخفين بأقسى العقوبات - لم يجرؤوا على انتهاك تعاليم النبى ، وحين شاهدتهم يرفعون تلك الأصفاد عنهم وقت الصلاة ليسجدوا لله القهار ويعبدوه .

« وعلى مَن يرغب فى فهم حقيقة أمم الشرق - التى لم يدرك الأوربيون أمرها إلا قليلاً - أن يتمثل سلطان الدين الكبير على نفوس أبنائها . وللدين - ذى التأثير الضئيل فينا - نفوذ عظيم فيهم ، وبالدين يؤثر فى نفوسهم ، ولولا الدين ما حرك ساكن المصريين ، منذ الثورة التى ضرجت مصر بالدماء - يعنى ثورة ١٩١٩ - إلى أن يقول :

« إن الرجل الذى يخاطب العرب باسم الله يطاع لا محالة ، ما علموا أنه يتكلم باسم الله حقاً .

فعلى الراصد المؤمن أو الملحد أن يحترم هذا الإيمان العميق . الذى استطاع العرب أن يفتحوا العالَم به فيما مضى ، وهم اليوم يصبرون به على قسوة المصير » (١) .

بل أقول : إن الإسلام يعتبر مكوّناً مهماً لثقافة غير المسلم الذى يعيش فى المجتمع المسلم ، وهو ينضح على تفكيره ووجدانه وعلاقاته ، شعر أو لم يشعر ، أحب أو كره . وهذا ما جعلنى أقول للدكتور لويس عوض عندما زار الدوحة منذ سنوات : إن وجودك فى المجتمع المسلم يقتضى أن تكون مسلماً بالثقافة والحضارة ،وإن لم تكن مسلماً بحكم العقيدة والديانة ! (٢) .

---

(١) من كتاب « حضارة العرب » لـ « غوستاف لوبون » - تعريب عادل زعيتر - ص ٤١٧

(٢) انظر : المجد الثالث من منشورات نادى الجسرة فى قطر « قضايا ثقافية » ص ٤٧

وقد رأينا من إخواننا النصارى العرب الذين لا يجبنون عن التعبير بصراحة عن أثر الإسلام فيهم وفى ثقافتهم مَن تركوا شهادات عادلة على هذه الحقيقة التى نتحدث عنها ، وذلك مثل الشاعر القروى ، ومثل الأستاذ فارس الخورى رئيس وزراء سورية [1] ، ومثل الزعيم السياسى مكرم عبيد فى مصر الذى قال : أنا نصرانى ديناً ، مسلم وطناً .

ويحق للآخرين أن يقول كل منهم : أنا نصرانى ديانة ، مسلم ثقافة وحضارة .

وصلة الدين بالثقافة ليست خاصة بالثقافة الإسلامية ، فكل الثقافات مدينة للأديان فى تكوينها وتوجيهها ، سواء أكان هذا الدين سماوياً أم وضعياً ، حقاً أم باطلاً ، كما هو واضح فى ثقافات الشرق والغرب .

والثقافة الغربية على سبيل المثال ، هى بنت الديانة المسيحية ، بعقائدها وتصوراتها ، ومواريثها وتقاليدها المختلفة .

وهذا ما سجله الدارسون المتعمقون من الغربيين .

يقول « ت . س . إليوت » فى تأثير العقيدة المسيحية فى الثقافة والحضارة الأوروبية : « فى المسيحية نمت فنوننا ، وفى المسيحية تأصلت - إلى عهد قريب - قوانين أوروبا . وليس لتفكيرنا كله معنى أو دلالة خارج الإطار المسيحى . وقد لا يؤمن فرد أوروبى بأن العقيدة المسيحية صحيحة ، ولكن كل ما يقوله ويفعله يأتيه من تراثه فى الثقافة المسيحية ، ويعتمد فى معناه على تلك الثقافة » .

ويقول : « ما كان يمكن أن تُخرج ڤولتير أو نيتشه إلا ثقافة مسيحية . وما أظن أن ثقافة أوروبا يمكن أن تبقى حية إذا اختفى الإيمان المسيحى اختفاءً

---

(١) انظر ما نقلناه من رأيه بصلاحية الإسلام وضرورة تحكيم شريعته ، فى كتابنا « شريعة الإسلام » ص ٩٦ - ٩٧

تاماً . ولا يرجع اقتناعى بذلك إلى كونى مسيحياً فحسب ، بل إننى مقتنع به أيضاً بوصفى دارساً لعلم الأحياء الاجتماعى .

إذا ذهبت المسيحية فستذهب كل ثقافتنا ، وعندئذٍ يكون عليك أن تبدأ البداية المؤلمة من جديد ، ولن تستطيع أن تلبس ثقافة جديدة جاهزة . يجب أن تنتظر حتى ينمو العشب ، ليغذو الضأن ، ليعطى الصوف ، الذى سيُصنع منه رداؤك الجديد ! يجب أن تمر بقرون كثيرة من الهمجية ، ولن نعيش إذن لنرى الثقافة الجديدة لا نحن ولا أحفاد أحفادنا ، ولو عشنا لما سعد بها واحد منا » (١) .

ومثل ذلك يقال فى تأثير الهندوسية فى ثقافة الهند ، والبوذية فى ثقافة الصين وكوريا وغيرهما .

ويمكننا أن نؤكد أنه لا ثقافة بغير دين ، أيّاً كان هذا الدين .

حتى الذين جحدوا الدين وحاربوه نظريّاً وعمليّاً ، كالماركسيين ، الذين طاردوه ولاحقوه حيث كان ، وشردوا رجاله ، وأغلقوا معابده ، وحرّقوا كتبه ، لم يسعهم إلا أن يصنعوا للناس ديناً جديداً ، يقوم مقام الدين القديم ، إلهه المادة ، ونبيه ماركس ، وجنّته الشيوعية الموعودة ، وشيطانه **الرأسمالية ، إلى آخر ما نعرف من مبادىء وطقوس لهذه الديانة ، التى سمى بعضهم أمثالها : أدياناً بغير وحى !**

* *

(١) ملاحظات نحو تعريف الثقافة لـ « إليوت » ص ١٤٥ ، ترجمة د . شكرى عياد ، المؤسسة المصرية العامة .

٢ - اللغة العربية :

واللغة - أى لغة - هى المكوِّن الثانى للثقافة ، فهى وعاء العلوم والمعارف جميعاً ، وأداة الإفهام والتعبير العلمى ، والفنى والعادى . ووسيلة التأثير فى العقل والشعور بأدبها ونثرها وشعرها وحكمها وأمثالها وقصصها وأساطيرها ، وسائر ألوانها وأدواتها الفنية .

والله تعالى خلق الإنسان ، علَّمه البيان ، سواء أكان بياناً نطقيّاً أم بياناً خطيّاً ، ليفصح عما فى ضميره بلسان مبين .

وجعل من آياته اختلاف الألسنة ، كاختلاف الألوان .

وكان لكل لسان - أى كل لغة - خصائصه ، التى تظهر فى ثقافته ، وتؤثر فى تفكيره ووجدانه وسلوكه .

وللعربية - خاصة - تأثير بالغ فى ثقافتنا نحن العرب ، لما انفردت به هذه اللغة من مميزات لم تتوافر لغيرها .

وحسبها أن الله أنزل بها كتابه الخالد القرآن : ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾ (١) ، ﴿ **نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ** ﴾ (٢) .

وإن لغة اختارها الله تعالى لينزل بها خاتم كتبه ، وينطق بها خاتم رسله ، ويجعلها لغة العبادة لخاتمة رسالاته ، لجديرة أن تكون سيدة لغات العالَمين .

لقد بلغت العربية الذروة حين نزل بها هذا النص الإلَهى الذى أحكمت آياته ، ثم فصِّلت من لدن حكيم خبير ، ولا يوجد فى أى لغة من لغات الأرض نص إلَهى معصوم ، غير محرَّف ولا مبدَّل ؛ إلا العربية ، التى شرَّفها

---

(١) يوسف : ٢ (٢) الشعراء : ١٩٣ - ١٩٥

الله بالقرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، بعد أن حُرِّفت الكتب السماوية جميعاً ، بالأدلة القاطعة التى بيَّنها العلماء قديماً وحديثاً .

لقد ضمنت العربية الخلود ، حين نزل بها القرآن الذى تكفل الله تعالى بحفظه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١) .

وهذا ما جعل لهذه اللغة العزيزة لوناً من القداسة عند العرب المسلمين ، بل عند المسلمين غير العرب ، الذين يجتهدون فى تعلمها ما استطاعوا ، ويتقربون إلى الله بنشرها وتعليمها .

وقد حدث اتصال بين اللغة والدين - وبعبارة أخرى : بين الإسلام والعربية - حتى امتزج أحدهما بالآخر ، امتزاج الروح بالجسد ، فمَن قرأ متن اللغة وشواهدها ، أو نحوها أو صرفها ، وبلاغتها ، ورأى الشواهد والأمثلة فيها ، وجدها ممزوجة بالقرآن مزجاً . وكذلك مَن درس شعرها ونثرها لمس ذلك لمساً .

ومن هنا نجد محاولات بعضهم اليوم تفريغ اللغة من هذه الظواهر الأصيلة فيها ، وعزلها عن القرآن والسُّنَّة ، كما ترى ذلك واضحاً فى المعجم المعروف باسم « المنجد » (٢) الذى تعمد حذف كل استشهاد بالقرآن أو الحديث فى أى مادة لغوية .

ولهذا نجد كل مَن يحارب الإسلام يحارب اللغة العربية معه ، إذ لا عربية بغير قرآن ، ولا قرآن بغير بيانه من سُنَّة رسوله الكريم ، الذى أُمِرَ أن يبين للناس ما نُزِّل إليهم .

ولا غرو أن كانت الدعوة إلى العامية بذرة بذرها أعداء الأمة من المستشرقين والمبشرين والأجانب ، ليعزلوها عن الفصحى - لغة القرآن والسُّنَّة

---

(١) الحجر : ٩ (٢) تصنيف الأب اليسوعى لويس معلوف .

والتراث الإسلامى كله - كما تبين ذلك بالوثائق وأكدته الدراسات الأكاديمية [١] .

وكان من أكبر همّ المستعمرين الصليبيين وفروخهم فى كل بلد عربى إضعاف الفصحى ، وإشاعة العامية ، وإعلاء اللغة الأجنبية على اللغة القومية ، كما فعل ذلك « دنلوب » فى نظام التعليم بمصر [٢] .

وكان أكبر همهم فى البلدان الإسلامية التى تكتب لغتها بالحرف العربى إلغاء الحرف العربى من الكتابة ، وإحلال الحرف اللاتينى محله ، كما فعلوا ذلك فى تركية وماليزية وبعض البلاد الإفريقية .

وكان همّ الحكم العلمانى فى تركيا محاولة تفريغ التركية من الكلمات العربية التى تشغل منها حيزاً كبيراً ، لتوضع موضعها كلمات لاتينية ، بدعوى أنها كلمات عالَمية !

وما ذاك إلا لأن الكلمات العربية لها تأثيرها وإيحاؤها فى نفس كل مسلم ، كما أنها تُذكِّر أبداً بالقرآن والإسلام ، وتؤكد دائماً روابط الأخوة الإسلامية .

* * *

● خصائص ثقافتنا :

ولا بد - لكى نفهم ثقافتنا بحق - أن نعرف خصائصها العامة ، التى ميَّزتها عن غيرها من الثقافات . وهذا يحتاج إلى بحث مفرد ، ولكننا نشير هنا إلى رؤوسها تبصرة وتذكرة .

---

(١) انظر كتاب « تاريخ الدعوة إلى العامية وأثرها فى مصر » للدكتورة نفوسة زكريا ، وما كتبه الأستاذ محمود محمد شاكر فى كتابه « أباطيل وأسمار » عن هذه القضية ، ودعوة سلامة موسى ولويس عوض وأمثالهما إلى العامية ص ١٥١ - ١٩٤

(٢) بيّن الأستاذ شاكر أن هدف « دنلوب » من نظامه التعليمى هو سيادة اللغة الإنجليزية على اللغة العربية . (انظر : أباطيل وأسمار ص ٥٦٠) .

فمن خصائص هذه الثقافة :

الربانية : فهى ثقافة معجونة بالجانب الإلَهى ، قد امتزجت فكرة الإيمان عامة ، والتوحيد خاصة ، بجوانبها كلها ، وجرت فيها مجرى الدم فى الشعيرات ، فى شعرها ونثرها ، فى أدبها وعلمها وفلسفتها ، فى كتب اللغة وكتب الدين ، وكتب العلم ، على اختلافها ، فيما تزيّن به المساجد ، وفيما تجمَّل به المنازل .

قد يوجد فيها بعض الملاحدة أو الشكاك ، ولكنهم يمثلون الشذوذ الذى يثبت القاعدة ولا ينفيها . ومع هذا تجد نضح هذه الثقافة الربانية عليهم ، أحبوا أو كرهوا .

الأخلاقية : وللعنصر الأخلاقى فيها مكان رحيب ، وأثر عميق ، برز ذلك العنصر حتى فى الجاهلية ذاتها ، كما نلمسه فى شعر حاتم الطائى ، وعروة ابن الورد ، وعنترة العبسى [1] ، وغيرهم .

ثم جاء الإسلام ، فعمَّق هذا العنصر أيما تعميق ، ووسّعه أبلغ توسعة ، وربط الأخلاق بأهداف أرحب وأرقى ، وحوافز أنبل وأزكى ، ووصلها بفكرة الإلزام والجزاء ، جزاء الدنيا وجزاء الآخرة ، وحرّرها من غلوّ الجاهلية وغلوائها ، ورفع الأخلاق مكاناً عليّاً حين جعلها غاية الرسالة : [**إنما بعثت لأتّمم مكارم الأخلاق**] [2] ، **وندد بالعلم الذى لا يثمر خلقاً ولا سلوكاً حسناً .**

---

(١) انظر بعض أشعار هؤلاء فى ديوان الحماسة لأبى تمام .

(٢) رواه ابن سعد والبخارى فى الأدب المفرد ، والحاكم وصححه ، ووافقه الذهبى والبيهقى فى الشعب . كلهم عن أبى هريرة . وذكره فى صحيح الجامع الصغير (٢٣٤٩) .

وفصَّل آداباً للمعلم والمتعلم ، والقارىء والسامع ، والباحث والمناظر ، بل آداباً لكل شيءٍ فى الحياة ، من أدب المائدة إلى بناء الدولة .

واعتبرت الأخلاق ثمرة الاعتقاد الصحيح والتعبد الخالص ، وإلا كان فساد الخُلُق دليل فساد الإيمان ، أو فساد العبادة .

ولا تعترف هذه الثقافة بتجزئة الأخلاق : أخلاق لمعاملة المسلمين ، وأخرى لغير المسلمين ؛ فالخير خير للجميع ، والشر شر على الجميع ، والحلال حلال للكلّ ، والحرام حرام على الكلّ ، لا كما جاء فى توراة اليهود .

كما لا تعترف هذه الثقافة بذلك المبدأ الخطر الشرير : أن الغاية تبرّر الوسيلة ، بل هى لا تؤمن إلا بالوسيلة النظيفة للغاية الشريفة ، ولا تصل إلى الحق بالخوض فى الباطل . فإن الله تعالى طيّب لا يقبل إلا طيباً .

ومن ثَمَّ لا انفصال فى ثقافة الإسلام بين الأخلاق والعلم ، ولا بين الأخلاق والاقتصاد ، ولا بين الأخلاق والسياسة ، ولا بين الأخلاق والحرب .

الإنسانية : ومن خصائص هذه الثقافة : الإنسانية . فلُحمتها وسداها : احترام الإنسان ، ورعاية كرامة الإنسان ، وحقوق الإنسان ، فهى تقوم على اعتبار أن الإنسان « مخلوق مكرّم » من ربه : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ ﴾ (١) ، وأن الله جعله فى الأرض خليفة ، وأنه تعالى سخَّر له ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه .

وهى تقوم على تكريم الإنسان من حيث هو إنسان ، بغضّ النظر عن جنسه أو لونه ، أو لغته أو موطنه ، أو طبقته ، بل عن دينه نفسه ، فهو مكرّم بإنسانيته قبل ديانته . ومن المواقف الرائعة ما رواه البخارى عن النبى ﷺ أنه

---

(١) الإسراء : ٧٠

قد مرت عليه جنازة ميت وهو جالس ، فقام لها واقفاً ، فقيل له : إنها جنازة يهودى ؟ فقال : [أليست نفساً] ؟ بلى ، ولكل نفس فى الإسلام حُرْمة ومكان (١) .

العالمية : وما دامت ثقافة لكل إنسان ، فلا غرو أن تكون ثقافة عالَمية المنزع ، والوجهة ، وقد عملت على تقريب الفوارق بين بنى الإنسان ، تلك التى فرَّقت البَشر قديماً وحديثاً ، ولهذا اشترك فيها عرب وعجم ، بيض وسود ، أغنياء وفقراء ، ملوك وسوقة ، مسلمون ونصارى ويهود ومجوس ، ولا تنافى بين انتماء هذه الثقافة إلى العروبة والإسلام من ناحية ، ووصفها بالعالَمية من ناحية أخرى . فهى - كما قلنا - عالَمية النزعة والوجهة ، مفتوحة لكل الجماعات البَشرية ، غير مغلقة على نفسها ، ولا متعصبة ضد غيرها ، مثل الثقافة اليهودية المنغلقة ، التى تقوم على تمجيد جنس خاص ، وشعب معين ، حتى وصفت الله سبحانه بأنه « ربّ إسرائيل » ، واعتبرت الشعب الإسرائيلى - كجنس - شعب الله المختار .

أما ثقافتنا فهى وإن كتبت بالعربية ، وانطلقت من الإسلام ، فالإسلام نفسه عالَمى الرسالة من أول يوم ، جاء يقول : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ** ﴾ (٢) لا « يا أيها العرب » ، ويدعو إلى الله ﴿ **رَبِّ العَالَمِينَ** ﴾ (٣) لا « رب المسلمين ولا رب العرب وحدهم » . ويعلن أن دعوته عامة لا خاصة : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ** ﴾ (٤) .

التسامح : ومن دلائل هذه العالمية وجود خصيصة « التسامح » فيها ، برغم ظهور العنصر الدينى فيها وغلبته عليها . ولكن الدين الذى قامت عليه ، يؤكد

---

(١) انظر : خصيصة الإنسانية من كتابنا « الخصائص العامة للإسلام » ، طبع مكتبة وهبة ، القاهرة . والرسالة ، بيروت . (٢) البقرة : ٢١ وغيرها .
(٣) الفاتحة : ٢ وغيرها . (٤) الأنبياء : ١٠٧

الإيمان بحقيقتين أساسيتين على غاية من الأهمية ، لتأثيرهما فى فكر الإنسان وسلوكه ، وعلاقاته مع الآخرين المخالفين ، وهما :

الأولى : أن اختلاف البَشر فى الأديان وغيرها واقع بمشيئة الله تعالى المرتبطة بحكمته ، ولا يملك أحد أن يرد مشيئة الله ويُغيِّر سننه فى الكون . يقول تعالى : ﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ، وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ** ﴾ (١) .

الثانية : أن حسابهم على ما ضلُّوا فيه أو انحرفوا ، إنما هو إلى الله يوم القيامة ، وليس إلى الناس اليوم . وفى هذا يقول الله لرسوله فى شأن المخالفين : ﴿ **فَلِذَلِكَ فَادْعُ ، وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ، وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ، وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللهُ مِن كِتَابٍ ، وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ، اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ، لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ، لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ، اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ** ﴾ (٢) .

ولهذا وسعت هذه الثقافة وهذه الحضارة غير المسلمين ، وفسحت لهم مكاناً فى مجتمعاتها ، وأعطتهم ذمة الله وذمة رسوله ، وذمة جماعة المسلمين ، على أن يكون لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما عليهم ، إلا ما اقتضاه اختلاف الديانة ، وبقى هؤلاء على عقائدهم وعباداتهم وشعائرهم ، وبقيت لهم معابدهم ومؤسساتهم ، ولم يُجبروا على شىء يمنعهم دينهم منه ، بل لم يُجبروا على ترك ما يبيحه دينهم لهم كالخمر والخنزير (٣) ، بل شاركوا فى بناء الحضارة الإسلامية ، وكان لهم فى أحيان كثيرة مناصب وزارية وإدارية ومالية ؛ على خلاف ما تعانيه الأقليات والجاليات المسلمة فى كثير من المجتمعات الغربية اليوم ، التى أقامت الدنيا وأقعدتها من أجل طالبات

---

(١) هود : ١١٨ - ١١٩ (٢) الشورى : ١٥

(٣) انظر : كتابنا « غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى » ، فصل « تسامح فريد » ص ٤٧ - ٥٥ ، طبع مكتبة وهبة - الطبعة الثالثة .

مسلمات يلتزمن الحجاب الذى فرضه عليهن الإسلام ، وكذلك من أجل فتح كلية أوروبية خاصة للدراسات الإسلامية ، لتخريج أئمة ووعاظ للجاليات الإسلامية الكبيرة فى داخل أوروبا شرقها وغربها .

التنوّع : ومن خصائص هذه الثقافة « التنوّع » ؛ فهى ليست مجرد ثقافة دينية لاهوتية ، كما يتصور بعضهم . . إنها ثقافة واسعة متنوعة ، فيها الدين بفروعه المتعددة ، واللغة والأدب والفلسفة ، والعلوم الطبيعية والرياضية ، والعلوم الإنسانية ، والفنون المختلفة .

فيها فقه أبى حنيفة ، وأصول الشافعى ، وكلام الأشعرى ، وتفسير الطبرى، ورواية البخارى ، وأدب الجاحظ ، ومعجم الخليل ، ونحو سيبويه ، وبلاغة عبد القاهر ، وطب ابن سينا ، وشعر المتنبى ، ومقامات الحريرى ، وبصريات ابن الهيثم ، ورياضيات البيرونى ، وتصوف الغزالى ، وفلسفة ابن رشد ، وتحليل ابن خلدون ، وخط ابن مقلة ، وألحان الموصلى .

فيها ابن طفيل من الأندلس ، وابن أبى زيد من تونس ، وابن حجر من مصر ، وابن الوزير من اليمن ، والشيرازى من إيران ، والزمخشرى من خوارزم ، والدهلوى من الهند ، وجلال الدين الرومى من تركيا .

فيها صلاح أهل السلوك ، وخلاعة أهل البطالة .

فيها « نهج البلاغة » ، و« ألف ليلة وليلة » .

فيها زهديات أبى العتاهية ، وخمريات أبى نواس .

فيها مرثيات الخنساء ، ومجون ابن أبى ربيعة .

فيها سلفيّة ابن تيمية ، وصوفية ابن عربى .

فيها ظاهرية ابن حزم ، ومقاصدية الشاطبى .

فيها عقلانية الفلاسفة ، والتزام الفقهاء .

فيها اجتهاد المجددين ، وتزمّت المقلدين .

فيها الفِرَق المختلفة من أهل الملّة ، والفرق المنشقّة عن الملّة .

فيها الكتب المقروءة التى امتلأت بها المكتبات ، والصور المشهودة التى اردانت بها الجوامع والمدارس والقصور (الأموى فى دمشق ، والحمراء فى الأندلس ، والأزهر فى مصر ، والسلطان أحمد فى استانبول ، وتاج محل فى الهند) .

إنه التنوّع الشامل أو الشمول المتنوّع .

الوسطية : يكمل خصيصة « التنوّع » خصيصة أخرى هى « الوسطية » أو « التوازن » . فهذه الثقافة تمثل المنهج الوسط ، للأمة الوسط ، بين إفراط الأمم المختلفة وتفريطها . ومع أن الطرفين قد يوجدان داخلها ، إلا أن الصبغة العامة لها ، والطابع الغالب عليها هو الوسطية ، التوازنية ، المستمدة من وسطية الإسلام ، ووسطية أُمَّته : ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً** ﴾ (١) .

تجد هذا واضحاً فى الوسطية المتوازنة : بين العقل والوحى ، بين العلم والإيمان ، بين المادة والروح ، بين الحقوق والواجبات ، بين الفردية والجَماعية ، بين الإلهام والالتزام ، بين النص والاجتهاد ، بين المثال والواقع ، بين استلهام الماضى والتطلع إلى المستقبل .

التكامل : ومن خصائص هذه الثقافة أيضاً : التكامل ، التكامل فيما بين بعضها وبعض ، فالثقافة اللغوية تخدم الثقافة الدينية ، وهذه تغذى الثقافة الإنسانية ، وكل هذه تستفيد من الثقافة العلمية .

ومثل ذلك تكاملها مع الثقافات الأخرى ، فهى لا تدعى أنها تنشىء كل

---

(١) البقرة : ١٤٣

شيء من عدم ، وتبدأ رحلة الثقافة من الصفر ، بل أعلنت نصوصها المقدسة أنها جاءت متممة لما كان قبلها لا مبتكرة ، مكملة للبناء الذى بدأه رسل الله من قبل ، مصححة للمسيرة التى داخلها بعض التحريف أو الانحراف . ولهذا قال رسولها عليه الصلاة والسلام : [إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق] ، فهو متمم لا مبتدىء ، ومكارم الأخلاق لم تقطع جذورها من الدنيا ، بل هى موجودة ، وإن كان فيها قصور وتناقص ، ومهمته أن يتممها ويكملها .

ومنوقف الثقافة الإسلامية مع الثقافات الأخرى كموقف نبوة محمد ﷺ مع النبوات الأخرى ، والذى عبّر عنه الحديث الصحيح : [إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى : كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله ، إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ، ويعجبون له ، ويقولون : هلاّ وُضِعت هذه اللَّبنة ؟! فأنا اللَّبنة ، وأنا خاتم النبيين] (١) .

ومقتضى هذا التكامل الذى اتصفت به الثقافة الإسلامية ، أنها لا تجد مانعاً شرعياً يمنعها من اقتباس الحكمة ، والتماس العلم النافع ، والعمل الصالح عند غيرها ، ولو كانوا خصومها . وفى الحديث الذى رواه الترمذى وابن ماجه : [الكلمة الحكمة ضالة المؤمن ، فحيث وجدها فهو أحق بها] (٢) ، والحديث ضعيف من حيث سنده ، ولكن معناه صحيح ، بإجماع علماء الأمة . وهو ما استقر عليه الفقه والعمل .

---

(١) متفق عليه من حديث أبى هريرة ، كما فى (اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان) ، حديث رقم (١٤٧٣) .

(٢) رواه الترمذى فى أبواب العلم عن أبى هريرة (٢٦٨٨) وقال : حديث غريب ، وذكر أن فيه راوياً يضعّف فى الحديث من قِبَل حفظه . ورواه ابن ماجه فى الزهد (٤١٦٩) .

وقد طلب الرسول الكريم من أسرى المشركين الذين يحسنون الكتابة ، ولم يتيسر لهم دفع الفدية فى غزوة « بدر » أن يفدوا أنفسهم بتعليم كل واحد منهم عشرة من أولاد المسلمين الكتابة حتى يحذقوا ، فتعلم منهم عدد كان منهم زيد بن ثابت كاتب الوحى ، وأحد علماء الصحابة رضى الله عنهم (١) .

* * *

(١) رواه ابن سعد عن الشعبى مرسلاً ، كما فى الطبقات : ١/٢٢ ، طبع بيروت .